العيوب وتعيين طرق الإصلاح تباينا يجعل الباحث يتساءل عن قيمة الأسس التي اعتمدوها ومدى سلامتها.

وقد بدا لنا بعد تدبّر هذه المقاربات للتراث أن عيبها هو اتّصافها بالتجريبية. ونحن لا نقصد بالتجريبية تلك النزعة في العلوم التي تقضي باعتماد التجربة قبل إصدار أحكام علميّة فتلك من محاسن المنهج العلمي وإنّما الذي نقصده بالتجريبية (empirisme)، هو قلّة التنظير للممارسة العملية وعدم وعي الباحث بالمسلّمات التي ينطلق منها وعدم تفكيره فيما يقتضيه التسليم بها من مستلزمات ونتائج فرعيّة. ونودّ أن نرفع التباسا قد يعرض. فقولنا قد يوهم أن التجريبية هي دائما نتيجة تقصير من الباحث والحق أنّها قد تكون نتيجة مرحلة تاريخية تكيّف جهود الأفراد رغما عنهم.

وفيما يتعلق بموضوعنا فإن مقاربات التراث اتّسمت بالتجريبية لأنّها في الأغلب الأعمّ عندما كانت تنقد التراث النحوي وتقيّمه لم تكن تستند إلى نظريّة واضحة لما ينبغي أن تكون عليه الدراسة اللّغوية العلمية ولما ينبغي أن تكون عليه الدراسة العلميّة عموما، ولم تكن واعية بكل الصعوبات والإشكالات النظريّة التي تقتضيها عمليّة التقييم هذه.

ولهذا الوضع أسباب كَيَّفَتْهُ: منها ما يتعلّق بالدواعي التاريخية والاجتماعية والحاجات الظرفيّة التي كانت وراء هذه المقاربات وهي أسباب عربية داخلية. ومنها خاصّة ما يتعلّق بنشأة النظرية العلميّة للدراسة اللّغوية وتطوّرها وكيفية تقبّلها ومدى تمثّلها من قبل اللغويين العرب ونعني بذلك علم اللسانيات.

ونحن نريد الآن أن نبيّن من خلال استعراض أهمّ مقاربات التراث مظاهر هذه التجريبية والأخطاء التي وقع فيها الباحثون لعدم انطلاقهم من نظرية علميّة واضحة للغة.